من وراء المنظار

شيخ وشيخ

هأنذا فى الريف أضع على أنفى منظار القرية ، وقد تركت فوق مكتبى فى « الرسالة » منظار القاهرة حتى أعود إليه بعد حين . وكان أول ما وقع عليه فى القرية منظارى الجديد بعض ما صنع هذان الشيخان فى ضحى يوم من أيام رمضان .

أما أولهما فشيخ من حيث الاصطلاح والملبس ، فقد لبث فى الأزهر من عمره سنين ولا يزال فى القرية يضع على رأسه عمامة هى كل حجته على العلم والورع وإن كانت بعض وسائله إلى المال والشبع . وأما ثانيهما فشيخ من حيث العمر فقد تخطى السبعين منذ سنتين وبعض سنة كما ذكر لى حين حدثنى عن سنه ...

جلست أمام دارى عند مخرج القرية إلى الحقول وأنا أعجب كيف يغدو الفلاحون إلى أعمالهم صابرين ، وقد قضى الصوم والحر على كل ما كان من نشاط فى بدنى فما أتحرك لكى أبقى فى الظل إلا فى مشقة وجهد . وبينما كنت أتفكر فى أمر هؤلاء المساكين إذ أقبل على أحدهم فسلم وجلس القرفصاء إلى جانب كرسي وأسند إلى الحائط ظهره ، ونظرت إليه فإذا هو من فرط نحوله وشحوبه أشبه شيء بعود الذرة جف فاغتدى عوداً من الحطب .

وتكلم فقال : « لن ينقذنى من الشيخ فلان إلا أنت ! فقد اضطرتنى الحاجة إلى أن أقترض منه منذ شهرين جنيهين ونصف جنيه على أن أعطيه وفاء لدينى أردباً كاملا من القمح الجديد . ولما كنت أستطيع أن أبيع الأردب اليوم بخمسة جنيهات فقد ألححت عليه أن يأخذ ثلاثة جنيهات ؛ ولكنه تمسك بأردب القمح كاملا . وها هى ذى ثلاثة جنيهات ونصف أرجو منك أن تتوسط لدى الشيخ ليقبلها » ومد الرجل إلىّ يده بالنقود وهى ترتعش ، ولمحت فى وجهه من السخط المكظوم ما زاده بؤساً على بؤس ... ولكننى أخذت منه قيمة الدين ورددت إليه جنيهاً ، فنظر إلىّ دهشاً وسكت .

ومضيت إلى الشيخ وفى خاطرى خيال « شايلوك » يهودى شكسبير ، وسلمت وقلت إن فلاناً ذو عسرة ؛ وقد توسل إلىّ أن أؤدى عنه ما عليه لك من دين . ومددت إليه يدى بجنيهين ونصف جنيه فحسب . فما إن عدها حتى اصفر وجهه وتكره لى كأنى أشتمه ، ثم أخذته حيرة من أمره وتمتم وعبس وتأفف ودس المال فى جيبه وهو يلعن هؤلاء الفلاحين الذين لا أمانة لهم ولا عهد ولا ذمة . وتعجبت أو تظاهرت بالتعجب وقلت متجاهلا ، ها هو ذا دينه يؤدَّى إليك . فنظر إلى نظرة كلها لؤم وخبث يتبين ما إذا كنت أعلم شيئاً عن قصة أردب القمح . ثم تركته فى غيظه وألمه ينتفض انتفاضة من لدغته عقرب ويقسم أغلظ القسم أن لن يعين أحداً من هؤلاء الفلاحين ناكرى الجميل بعد اليوم ...

ومررت أثناء عودتى بدار عم محمد النجار فأبصرته فى مدخل الدار وبين يديه أدوات عمله وبعض أشياء من الخشب كان يصلحها ؛ فسلمت على الشيخ فنهض للقائى فى خفة ودعانى إلى الجلوس ، فجلست بجانبه على حصيرة وهو يكرر فى بشاشة وترحاب قوله « رمضان كريم » وإنه ليعلم أنى أحبه كما أعلم أنه يحبنى ويأنس إلىّ ؛ وقلما رآه أحد من القرية يقبل على امرىء أو يهش له كما يقبل علىّ ويهش لى ، وذلك أن هذا النجار الشيخ على فاقته الشديدة يظن الظنون بمن يراهم أكبر منه قدراً أو أكثر منه مالا لأنه يكره أشد الكره أن يتكبر عليه أحد مهما بلغ من جاهه أو ثرائه ، والويل كل الويل لمن يغلظ له فى القول من أعيان القرية فإنه عند ذاك ينقلب من شيخ وديع هادىء إلى نمر شرس هائج لا يخيفه شيء ، وقد أحس الشيخ أنى أكبره وأحب حديثه فخفض لى جناحه وبسط لى مودته .

ونظرت إلى وجهه المسنون وإلى عينيه البراقتين وهو يصلح بعض أدوات الزراعة وكأنما يزداد هذا المحيا بشاشة ونضرة كلما علت بصاحبه السن ، وأراد أن يعتذر إلىّ من عدم انصرافه عن العمل احتفاء بى كما كان ينبغى فى رأيه فقال إنه يصلح هذه الأشياء الزراعية الصغيرة بغير أجر فى رمضان من كل عام ليغنم الثواب مضاعفاً على الصوم ، وهو لا يحب أن يخلف الوعد ، فما قليل سيأتى أصحاب هذه الأدوات لأخذها ؛ وأثنيت عليه